تأثير الاوبئة

في الحروب الماضية

«من الأقوال العامة في الحرب والسلم المسلَّم بصحتها قول قديم مؤداه ان المرض في الحرب أفتك بالجند والناس من الاسلحة . وقد أشار المؤرخون الى ما يؤيد هذا القول في حملة زركسيس الفارسي على اليونان ، وفي الحروب الصليبية ؛ ثم في حرب الثلاثين سنة وغيرها من الحروب التي تلت الثورة الفرنسية ولا سيما حروب نابليون في عهده الأخير عند ما ضاق الخناق عليه وعلى فرنسة اوربا . أما الحروب القريبة منا فنهم حرب القرم وقد تفشت في أثنائها حمى التيفوس والهواء الاصفر والديسنطاريا وغيرها في صفوف الجيوش الروسية والبريطانية والفرنسية فتفتكت بها فتكاً ذريعاً وحصدت من النفوس أضعاف ما حصده القتال . وفي الحرب الاميركية المكسيكية (١٨٤٦—١٨٤٩) بلغت الاصابات الناشئة عن المرض في الجيش الاميركي سبعة أسباع الاصابات الناشئة عن القتال . وفي الحرب الاهلية الاميركية قتل المرض من الجند ١٨٦ الفاً ولم يقتل في المعارك سوى نصف ذلك »

هذه الفقرة كانت استهلال مقال في «الحرب والمرض» نشرناه في صدر مقتطف اغسطس الماضي . وكان مداره على ضروب التقدم العلمي والطبي الحديث في مواجهة المشكلات الناشئة عن المجاعة وتفشي الامراض في اثناء الحرب . ثم اطلعنا على مقال نشر في «المجلة الاولندية للعلم الطبي» فصَّل فيه الكاتب عدد ما ذهب من الناس ضحية الامراض والاوبئة في الحروب الماضية فلخصناه في ما يلي :—

كانت الحرب العالمية الماضية (١٩١٤—١٩١٨) الحرب الاولى في تاريخ البشر — على مدى علمنا — التي لم يزد فيها او في مناطق القتال الفعَّال في غرب اوربا على الاقل ، الوفيات ضحايا المرض على ضحايا القتال . ففي حرب البوير في اواخر القرن الماضي ؛ اربى عدد الوفيات بالتيفود على القتلى بالرصاص . وقد بلغت قوة الجيوش البريطانية في أثناء القتال ٥٥٧ الفاً أو ٢٢٦ر٢٠٨ محارباً على الفعل ، أصيب منهم ٥٧٦٠٤ جنود بالتيفود وتوفي من هؤلاء ٨٠٢٢ مصاباً . وبلغ عدد المتوفين من المصابين بأمراض اخرى ٣٣٠٥ مصابين . فكان المجموع

١٠٣٢٧ أما عدد الذين قتلوا في الميدان او ماتوا من جراح اصيبوا بها في الميدان فبلغ ٦٤٢٥ جندياً فعدد ضحايا المرض بالقياس الى ضحايا القتال كان ٧ الى ٤. ولكن بحث تأثير الأوبئة في الحروب لا يقتصر على بحث حالة المجندين بل يشمل كذلك حالة المدنيين. ولذلك يجب ان يضاف ١٤ الف طفل و ٥ آلاف من الكبار في المعتقلات توفوا مصابين بالحصبة والسعال الديكي والتهاب الغدة النكفية والدفتيريا والتيفود. فيبلغ عدد الذين توفوا بالمرض في اثناء تلك الحرب ٣١ الفاً وهذا رقم لا يدخل فيه حساب خسارة البوير انفسهم

أما كون الوفيات الناشئة عن المرض كانت اقل من الوفيات الناشئة عن القتال، في الحرب العالمية الماضية، فيجب ان يعد ظفراً عظيماً للطب الحديث. ولكن الاصابات والوفيات الناشئة عن المرض في مناطق حربية بعيدة كبلدان اوربا الشرقية والبلدان الاسيوية حيث تفشت اوبئة التيفوس والتيفود والكوليرا، وربما الطاعون، كانت عظيمة حقاً

وصف توسيديديس المؤرخ اليوناني المشهور الوباء الذي اصيبت به اثينا في اوائل القرن الخامس ق. م. وليس ثمة شك — اعتماداً على وصفه — في انه كان وباء حمى التيفوس، وان كان في بعض أقواله ما يشعر بأنه وباء طاعون. وقد كان الطاعون على ما يظن معروفاً لليونان القدماء ولكن هذا الوباء الذي تفشى في اثينا كان مرضاً جديداً لا عهد لاطبائها به من قبل

والغالب ان وباء التيفوس هو أقدم أوبئة الحرب وأوسعها انتشاراً. بينما يغلب على الرأي ان انتشار الطاعون يتبع الاختلاط التجاري، وتفشي الملاريا يشمل الجيوش التي تنزل في البطائح او البقاع التي تمكن منها هذا المرض. اما التيفوس فيبدو انه دائماً متصل بالحرب والمجاعة والنفاقة والازدحام ولا يقتصر تأثيره على الجيوش بل يشمل الاهلين كذلك. ومن المحتمل انه كان مصحوباً في أثينا بالحمى الراجعة وحمى النخاع الشوكي وربما الجدري. ولكن المرجح ان المرض الغالب في الوباء الاثيني الذي وصفه توسيديديس كان مرض التيفوس

وكانت حمى التيفوس قد أصبحت نادرة في اوربا قبل الحرب العالمية الماضية وما بقي منها كان معروفاً على الاكثر في بولونيا الروسية وتركيا والى شرقها. أما كيف نشأ وبأ التيفوس وانتشر في اثناء الحرب العالمية الماضية فقصة عبرة لمن يعتبر. فقد بلغت الاصابات به في بولونيا ٤٠٠ الف توفي منها ٤٠ الفاً أي عشرة في المائة من المصابين. ونقل الاسرى الروس العدوى الى المانيا والنمسا. ولم يكن في الجيش الصربي إصابة ما بها حتى احتل بلدة فالييفو على حدود البوسنه فأسر هناك ٤٠ الف اسير وكان بينهم ثلاثة آلاف مريض وجريح وكان بين المصابين عدد وافر مصاباً بالتيفوس. وكان الصربيون في حاجة الى اليد العاملة فنقلوا الاسرى في طول البلاد وعرضها فانتشر وبأ الحمى حاصداً الناس حصداً. وفي مارس سنة ١٩١٥ تولت بعثة

طبية بريطانية مكافحة الوباء فحدّت من انتشاره اولاً ثم تغلبت عليه . ولكن خسارة سريا بلغت ما يزيد على مائة الف توفوا بهذه الحمى الخبيثة

وبعد ما انتهت الحرب انتقلت طوائف كبيرة من السكان من بولونيا الى روسيا ثم من روسيا الى بولونيا فشاع وبأ التيفوس ثانية وأصبح خطراً كبيراً على صحة سكان اوربا . ولكن نشاط القسم الصحي بجامعة الامم حال دون انتشاره . ولا يعلم عدد الذين توفوا بالتيفوس في هذه الفترة ولكن الهيئات الصحية التي كانت تكافحه في بولونيا خمنت ١٨٥ من اعتنائها به

وقد روي من عهد قريب ان الاصابات بالتيفوس بدأت تظهر ثانية في شرق اوربا

ان تاريخ الحروب الصليبية حافل بذكر الامراض والاوبئة ، ولكن ليس في وسع المؤرخ العلمي ان يقرر الامراض التي كانت منتشرة فعلاً حينئذٍ . فالامبراطور فردريك بربروسا فقد كل جيشه بعد استيلائه على روما في سنة ١١٦٧ والغالب ان حمى التيفوس كانت سبب هذه الكارثة . ويقدر عدد الذين ذهبوا ضحية المرض في الحرب الصليبية الاولى من رجال الجيوش او المتصلين بها بنحو مائة الف والغالب ان الطاعون كان سبب وفاتهم . ولا يعلم على وجه التحقيق عدد الذين توفوا بالطاعون في حرب الثلاثين سنة لان الطاعون كان مصحوباً بالتيفوس والدسنطاريا . غير أن سكان اوربا تقلصوا في هذه الفترة من ثلاثين مليوناً الى ١٣ مليوناً ولم يزد عدد الذين توفوا متأثرين بجراحهم على خمسمائة الف

أما في حرب القرم فقد خسر الانجليز ٤٦٠٠ من القتل و٥٠٠ر١٧ متوفين بأمراض شتى وخسر الفرنسيون ٢٠٢٤٠ من القتل و٧٥ الفاً من المصابين بمرض ما . وذلك لان الجيش على ما يلوح نقل معه الكوليرا من فرنسا . وفي الحرب الاهلية الاميركية اشترك في القتال مليون جندي فقتل منهم ١٨٢ الفاً ومات بالمرض ٣٦٤٥٨٦ أي ضعف عدد القتلى . ومجموع القتلى والموتى يربي على نصف الجنود الذين اشتركوا في القتال [1]

ولم تعب الجيوش الالمانية في حرب سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ بخسارة فادحة ناشئة عن المرض إذ لم تزد نسبة الوفيات بالمرض على القتلى عن ٧ الى ١٣ ولكن الحرب نفسها كانت باعثاً على انتشار وباء الجدري وهو وباء وصف بأنه من أشد اوبئة القرن التاسع عشر . فتك به ٢٠٠ الف في فرنسا وأصيب ١٤ الف من الاسرى الفرنسيين في المانيا فأفضت هذه الاصابات

(١) في مكان « الحرب والمرض » الذي تقدم ذكره رقم تتبين منه ان عدد القتلى في الحرب الاهلية الاميركية بلغ ٩٤ الفاً والتوفي بمرض ١٨٦ الفاً . وبين الارقام الواردة في المكان الماضي والارقام الواردة في هذا المكان بون شاسع والارجح ان المكان الاول يشير الى قتلى وموتى جيش الشمال دون جيش الولايات الجنوبية

الى تفشيه في مصر حيث مات به ١٧٠ الفاً وانتشر في سويسرا وبلجيكا وهولندا ثم في ايطاليا والنمسا والمجر. فعدد الوفيات بالجدري في بريطانيا لم يزد على ١٥٠٠ في سنة ١٨٦٩ ولكنه بلغ ٢٣ الفاً في سنة ١٨٧٢ ولم تنجُ من آثاره البلدان الكندية وروسيا وجزائر الهند الغربية وجزائر المحيط الهادي.

وقد لا تعد الانفلوزا من أوبئة الحرب بحصر المعنى. ولكن الوباء الذي تفشى سنة ١٩١٨ — ١٩١٩ يعد أحد الأوبئة الكبرى في التاريخ. ففي عصر الامبراطور يوستنيانوس دام وباء الطاعون اثنتين وخمسين سنة وبلغ عدد الوفيات به في القسطنطينية عند ما بلغ اشده من خمسة آلاف الى عشرة آلاف كل يوم ودام ذلك نحو ثلاثة اشهر. ويقال ان وباء القرن الرابع عشر المعروف بالموت الاسود حصد ٢٥ مليون نفس أي ربع سكان القارة الاوربية حينئذٍ. ولكن هذين الوبأين لم يتفشيا تفشيًا عالميًا كما تفشى وباء الانفلوزا الذي ذاع في اثر الحرب العالمية الماضية. ولا يعلم عدد الوفيات التي نشأت عنه في شتى بلدان العالم. ولكن اذا أضفنا الوفيات به في الصين وروسيا الى خمسة ملايين ونيف في الهند و٨٠٠ الف في ايطاليا و ٤٥٠ الفاً في الولايات المتحدة و٢٥٠ الفاً في اليابان و ٦٠٠ الف في المانيا وارقاماً اخرى على هذا النمط في بلدان اخرى فقد لا يقل عدد الوفيات به عن عشرين مليون وقد يبلغ ثلاثين مليوناً

وليس ثمة ريب في ان الجوع ونقص الغذاء يفضيان الى كثير من المرض والموت ولا سيما في أثناء الحرب، عندما توزع الاقوات بالجراية والبطاقة، ومن هنا ما دوناه قبلاً في المقتطف من عناية بلدان شتى كبريطانيا والمانيا والولايات المتحدة بالاعتماد على البحث العلمي في جعل الجراية المتاحة لعامة الشعب محتوية على جميع عناصر الغذاء الأساسية. وهذا البحث العلمي في الغذاء نشأ معظمه عن أمراض نقص الغذاء التي تفشت في أوربا بعد الحرب الماضية، وفي سائر البلدان حيث مستوى الغذاء العام دون الحدّ الوافي بحاجة الجسم

ففي فينّا مثلاً انتشر الكساح انتشاراً عظيماً في سنة ١٩١٨ وهناك كشفت حقيقة عظيمة الشأن في علم الغذاء الحديث وهي ان ضوء الشمس يحلّ محلّ فيتامين D. والأمثلة على ذلك كثيرة. والاسكربوط — وهو من أمراض نقص الغذاء — مرض يقرن انتشاره دائماً بالحروب. أشار اليه أبقراط وتفشّى في أثناء الحروب الصليبية وحرب القرم وحصار باريس ١٨٧١ وبورث آرثر ١٩٠٤ — ١٩٠٥ وبلغ عدد الاصابات به في الحرب الأهلية الاميركية ٣٠ الفاً وانتشر انتشاراً واسعاً في روسيا وبلغاريا ورومانيا وصربيا والمانيا والنمسا في الحرب العالمية الماضية وكذلك الزهري وذكره الأول في أوربا يرتدّ الى القرن الخامس عشر ويقرن بحملة شارل الثامن على ايطاليا وعندما تفرّق جيشه نشر هذا الداء في انحاء اوربا